الموحدون وإستراتيجية القتال البحري في البحر المتوسط

الدكتور/ الطاهر قدوري

وجدة، المملكة المغربية.

الملخص:

نحاول في هذه الورقة مناقشة الاستراتيجية القتالية للبحرية الموحدية في الغرب الإسلامي،على مستوى بناء الأسطول البحري وإعداد السفن الحربية والاهتمام بالعنصر البشري وتطوير أسلحة القتال.

كما نحاول كذلك رصد مختلف أشكال القتال البحري الذي اعتمدته الدولة الموحدية من أجل توسيع مجالها الجغرافي والدفاع عن حدودها ورد حركات التمرد، وكل ذلك عبر المحاور الآتية:

1-الدولة الموحدية وإعداد الأسطول الابحري.

2-الأسطول الموحدي واستراتيجية القتال البحري.

3-نماذج من نشاط الأسطول الموحدي.

قبل أن نبسط جوانب هذه المداخلة لابد أن نقف قليلا عند مستوى التمييز بين السفينة العسكرية والسفينة التجارية،وهذه قضية مفصلية ونراها ضرورية لمحاولة معرفة مهام السفينة في العصر الوسيط،وقد اختلف المهتمون بهذا الموضوع بين من يرى إمكانية الفصل وبين من لا يقول بذلك.

إذا استثنينا بعض الأسماء القليلة التي تدل على نوع معين من السفن. فإن باقي المعلومات التي تشير إلى أنواع السفن يشوبها خلط كبير بل وتضارب في الرواية الواحدة، وعادة ما تورد الرواية التاريخية اسمين مختلفين لنوع واحد من

السفن، كما أن مصادرنا التاريخية والجغرافية عادة ما يغلب عليها استعمال بعض الأسماء دون الباقي من قبيل المركب والقطعة والأسطول والفلك.

ولا شك أن اختلاف أسماء السفن يعكس اختلاف المهمة التي كانت تقوم بها السفينة، وتبعا لذلك فهل يمكن تصنيف السفن على أساس جغرافي مجالي آخذين بعين الاعتبار البحر أو البحار التي كانت تستخدم فيها هذه السفن، بمعنى هل اختلفت سفن البحر المتوسط عن سفن البحر المحيط "المحيط الأطلسي"؟ فحسب أحد الباحثين إن الخلاف بين سفن البحرين يبقى ضئيلا بل لا يكاد يلمس. لأن السفن التي كانت تمخر عباب البحر المتوسط هي نفسها نجدها في سواحل البحر المحيط[1].

وإذا وقفنا فقط عند الدولة الموحدية –محور هذه الدراسة– فإننا نجد أن أسطولها كان يتكون من عدة أنواع من السفن، كانت تقوم بعملياتها العسكرية والتجارية في المياه المتوسطية والأطلنتية على حد سواء، وبالتالي فإن التصنيف حسب المجال الجغرافي لا يجدي نفعا في محاولة لضبط أنواع السفن واختلافها.

أما إذا أخذنا بعين الاعتبار الحالة التقنية الميكانيكية للسفينة والتي من خلالها يمكن الوقوف عند القوة المحركة للسفن، فهل نميز بين السفن على أساس استخدامها للشراع أم المجاذيف أم المزاوجة بينهما؟ إلا أن هذا التمييز بدوره لا يمكننا من الوقوف عند حقيقة الأمر. لأن السفن وهي تمخر عباب البحر فإن قائدها كان يحرص أشد الحرص على استغلال قوة الرياح التي إذا كانت مواتية فإنها تكفيه مؤونة استخدام المجذفين، أما إذا سكنت الرياح أو أراد الربان الزيادة في السرعة، فإنه يضطر إلى استغلال المجاذيف. ثم إن السفينة الوسيطية بغض النظر عن اسمها فإنها كانت تزاوج في حركتها بين الشراع والمجذاف.

1-ch_Picard,la Mer et les Musulman d'Occident au moyen Age ,Paris 1997, p305.

وبالمقابل فهل يمكن الاعتماد على الوظيفة التي كانت تقوم بها السفينة لتحديد نوعها؟فما هي الحدود الفاصلة بين السفينة التي تقوم بعمليات تجارية أو تلك التي تقوم بمهام عسكرية حربية، وبين هذه وتلك التي كانت تخصص لعمليات القرصنة أو النزهة إلا أنه حتى على هذا المستوى فإننا لا نستطيع الفصل بدقة بين أنواع السفن.

وبناء على هذا، فإن أي عملية لتصنيف السفن وضبط أسمائها ومميزاتها تبقى فقط محاولات استنتاجيه، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار تعدد أسماء السفن في مصادرنا لدرجة جعلت أحد الدارسين يعتقد بوجود اسم واحد لمختلف أنواع السفن، وليس أسماء مختلفة لنوع واحد من السفن[1] ومما زاد الأمور تعقيدا هو غلبة الصبغة الأدبية المجازية والبلاغية على النصوص التراثية التي تعرضت للأسطول وسفنه، واعتماد أسماء دخيلة على اللغة العربية دون تمحيصها وضبط دلالتها حتى غدت جزءا من مفردات اللغة العربية.

وكثيرا ما ذهب بعض الدارسين إلى إمكانية التمييز بين السفن التجارية والسفن العسكرية(الحربية)، فشوقي عثمان يرى أن السفن التي كانت تمخر عباب المحيط الهندي كان يغلب عليها الطابع التجاري و لم تتحول وظيفتها إلا مع قدوم الاستعمار الأوربي إلى المنطقة[2]، وهناك سفن مخصصة للتنقلات البشرية وأخرى مخصصة للعمليات الحربية وثالثة مخصصة للنزهة والترفيه. كما

1ــ فهمي محمود،التنظيم البحري في شرق المتوسط من القرن7 حتى القرن 12م،ترجمة قاسم عبد القاسم،ط1،بيروت 1981، ص150

2ــ شوقي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، عالم المعرفة، يوليوز 1993، ص. 159.

تطالعنا رسائل جينيزة على سفن كانت تقوم بعمليات تجارية على شكل قوافل ترافقها سفن حربية[1].

ولا شك أن هذه الدراسات فيما ذهبت إليه، كان معتمدها هو ما جاءت به المادة المصدرية من معلومات، تقدم فيها وحدات الأسطول قرينة للمهمات العسكرية التي كان ينجزها أسطول الدولة المغربية الوسيطية، ولما تتطرق للسفن التجارية فإنها تورد إشارات مقتضبة من قبيل مرسى كذا يطرقه التجار من مختلف الجهات، ويركزون أساسا على السفن الإيطالية والأندلسية وفي بعض الأحيان يوردون عبارات تفيد أن سفن الشرق الإسلامي كانت تقصد بعض موانئ المغرب وتتجهز فيها بمختلف أنواع السلع.

لكن أغلب الدراسات الحديثة ترى أنه من الصعوبة بمكان الفصل بين السفن التجارية والسفن الحربية، وأن الفرق بينهما يكاد يكون غير موجود، لأن السفينة وهي تقوم بعملياتها التجارية كانت تتزود بما تحتاجه من عدة عسكرية تمكنها من مواجهة أي خطر بحري.

وهكذا فإن السفينة تكون مزدوجة الوظيفة، فإبان مرحلة السلم والهدوء كانت السفن تمارس النشاط التجاري، لكن سرعان ما تتحول بسرعة عن هذه المهمة لتمارس أو تقوم بعمليات عسكرية عندما تضطرب الأوضاع أو تلوح في الأفق تباشير حرب محتملة، وبالتالي لا يمكننا أن نتحدث عن تخصص السفن لأن التخصص لم يظهر إلا مع الفترات الحديثة عندما ظهرت السفن المزودة بمختلف أنواع الأسلحة النارية خاصة المدافع.

1-جواتين، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوطي، ط. 1، 1980، ص.221.

1- الموحدون وإعداد الأسطول الحربي.

اعتبرت الأسلحة عاملا حاسما في إعداد الجيش وتنظيمه، وبمقدار استعداد الجيش وحسن إعداده وتسليحه يمكنه حسم الكثير من مواقع النزاع، وإننا لا نعدم نصوصا وإشارات تبين حسن تسليح الجيش المغربي في الفترة الوسيطية، سيما ما تعلق بالجيش الموحدي. فقد تحمل الجيش مسؤولية توسيع رقعة الدولة وقمع التمردات والثورات الداخلية وكبح جماح حركة الاسترداد « reconquista» التي كانت تنشط بين الفينة والأخرى في ربوع الأندلس، ولا نبالغ إذا قلنا إن بلاد الأندلس ومنذ أن أصبحت تابعة للمغرب من الناحية السياسية ،كلفت الدولة المغربية مصاريف مضاعفة من الناحية العسكرية من أجل ضبط ثغورها وقمع ثوراتها وتأمين حدودها.

وإذا كانت المصادر قد أوردت إشارات عديدة عن أنواع الأسلحة التي كانت تستخدم في عمليات القتال. فهل الأسلحة التي كان يستعملها الجيش البري هي نفسها التي كان يستعملها المقاتلون على ظهر السفن؟

يستفاد من الرواية التي أوردها **الحميري**[1] والمتعلقة بالحملة البحرية التي جهزها الخليفة الموحدي **محمد الناصر** والتي كان هدفها غزو **بني غانية** في عقر دارهم، أن الأسطول كان مجهزا بالمجانيق والسلالم والمساحي والفؤوس والمعاول والرقاق والحبال والدروع والسيوف والرماح والتروس والد روق والقسي والنشاب.

وعليه، فهذه الأسلحة التي استخدمها المقاتلون البحريون هي نفسها التي استخدمها المقاتلون في الجيوش البرية، ومن ثمة لم يكن هناك خلاف بين الجيش

1- عبد المنعم الحميري، الروض المعطار..، تحقيق، إحسان عباس، ط1 و2، مكتبة لبنان، بيروت، 1975،1984، ص. 567-568.

البري والبحري على مستوى العدة والعتاد الحربي، ومن هذه الأسلحة يمكن أن نذكر:

–الطبول: تعددت الإشارات لهذه الوسيلة القتالية، وأثارت اختلافا بين الدارسين حول تاريخ استعمالها في الجيش المغربي، وإن كانت أغلب الأبحاث تشير إلى أنها تقنية تم إدخالها مع زحف المرابطي نحو الشمال المغربي، متأثرا بما كان سائدا لدى شعوب إفريقيا جنوب الصحراء التي كانت صلتها بالطبول في حفلاتها وحياتها اليومية وثيقة جدا. وبالرجوع لكتاب **المقدمة**، فإن **ابن خلدون** لا يرى ما ذهب إليه أرسطو بأن اتخاذ الطبول كان القصد منه إرهاب العدو بتلك الأصوات القوية التي تثير الخوف والرعب في صفوف العدو فلا يقوى على مجابهة الطرف الآخر، بل يرى أن استعمال الطبول والأصوات والأنغام المنبعثة من الأبواق تثير في النفوس الأشجان "**فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب**" [1].

وظاهرة استعمال الطبول والأصوات المطربة عند الخروج إلى المعركة تكاد تكون ظاهرة قديمة عرفتها مختلف الشعوب، فكان يحف بالسلطان الشعراء والمغنون، فيثيرون بأصواتهم الشجية أحاسيس المحاربين ويحفزونهم على الإقدام، و لم تكن قبائل المغرب بدعا بين هذه الشعوب، فكانت "**زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي، ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها، ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت وأصله كله قرح يحث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح**"[2].

1- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت 1993، ص. 291.

2- نفسه، ص. 201 و202.

وفي عهد الدولة الإسلامية خاصة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، فإنهم كانوا يتجافون عن اتخاذ الطبول والاستكثار منها لما تثيره من عظمة الملك، فلم يتخذوها تحقيرا للملك وتقليلا من أبهته، وبانقلاب الخلافة إلى ملك فإن خلفاء بني أمية وبني العباس جاروا ملوك الفرس والروم فاستكثروا من الطبول والبنود دلالة على عظمة دولتهم ، أما الموحدون وقبائل زناتة فإنهم جعلوا قرع الطبول في فرقة خاصة تكون الساقة عند خروج السلطان للمعارك ومنعوا ذلك عن العمال[1].

أما عن عدد هذه الطبول، فإن الدول تفاوتت فيها بين مكثر ومقلل، فإذا كان ابن خلدون[2] يورد أن الموحدين وبني الأحمر قد اتخذوا سبعة طبول واتخذت زناتة عشرة طبول ووصلت في عهد أبي الحسن المريني مائة طبل، فإن روايات أخرى تشير إلى أن الموحدين قد أكثروا من اتخاذ الطبول حيث بلغت مائة طبل [3] واحتفظوا بالطبول الأربعة المربعة الشكل التي كانت تقرع على عهد **المهدي بن تومرت**.

لقد كانت لهذه الطبول وظيفة خاصة نظرا لما رسمته في المخيال الجمعي لدى الخلفاء الموحدين من أثار طيبة وتيمنا وتقديسا لروح الزعيم الموحدي المهدي بن تومرت وقد كانت تقرع أساسا عند الاستعداد للخروج إلى المعركة [4]، ولعل ابن تومرت وهو يتخذ هذه الطبول كان يرغب في مخالفة الزعيم

1- عبد الرحمن بن خلدون، المرجع السابق، ص. 201، 202.

2-نفسه.

3- عبد الواحد المراكشي،المعجب في تلخيص أخبار المغرب،تحقيق،سعيد العريان والعربي العلمي،ط7،الدار البيضاء،1978،ص،339-340.

4- ابن صاحب الصلاة،المن بالإمامة..،تحقيق عبد الهادي التازي،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت 1987،ص،342. ابن خلدون،م.س،ص،202.

المرابطي **عبد الله بن ياسين** الذي لم ير بدا من اتخاذ الطبول، أو شارات الملك من قبل الأمير أو الخليفة والتي كانت تفرض ترتيبا خاصا على متولي شؤون الدولة.

أما عن وقت قرع هذه الطبول فلم يكن موقوفا على مناسبة بعينها وإنما خضع ذلك لمناسبات الدولة المختلفة، فقد تقرع عند خروج الجيش ، كما هو الشأن بالنسبة للدولة الموحدية التي اتخذت طبلا خاصا إذا قرع علم أنه طبل الرحيل. وقد خلف لنا صاحب الحلل الموشية وصفا قيما لهذا الطبل، حيث كان طبلا كبيرا مستدير الشكل يصل دوره إلى خمسة عشر ذراعا، وكان يتخذ من خشب ذي لون أخضر مرصع بالذهب ، فإذا ما ضرب هذا الطبل ثلاث ضربات علم أنه إيذان برحيل الجند، فيتحرك الناس، وبلغت قوة الصدى الذي ينبعث منه أنه كان يسمع على مسافة نصف يوم من مكان مرتفع في اليوم الذي لا ريح فيه[1].

وكانت تقرع الطبول كذلك عند وصول الأخبار السارة، خاصة ما تعلق منها بانتصار الجيش وتواصل الفتوح، فعندما تغلبت الجيوش الموحدية التي كان يقودها **أبو محمد بن عبد الله بن أبي حفص**، و**أبو زيد عبد الرحمن بن يخيت** على النصارى في حصن البطروج، فإن السيد أبا محمد بن أبي حفص أمر بإشبيلية أن تقرع الطبول ابتهاجا وفرحا بهذا النصر كما كانت تضرب احتفالا بتولية بعض العمال في بعض الولايات تقديرا وتشريفا لمتولي هذا المنصب، فقد ضربت الطبول عند تعيين الشيخ **أبي عبد الله بن أبي إبراهيم** عاملا للموحدين

1- ابن السماك العاملي،الحلل الموشية..،تحقيق،سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط1، الدار البيضاء، 1979، ص. 152.

على إقليم أشبيلية "وأمر له بأربعة من الطبول فضربت يوم خروجه ابتهالا به وإعلاما برفعته ورتبته" [1].

-الرايات:

وإلى جانب الطبول كانت تتخذ الرايات والألوية والبنود والتكثير منها- حسب ابن خلدون-[2] كان الهدف منه التهويل الذي ينعكس إيجابا على نفسية الجيش الخارج إلى المعركة وتثير بالمقابل مخاوف ومفازع العدو. واتخاذ الرايات والبنود تقنية عسكرية قديمة، بواسطتها كان يتم التعرف على الجيوش وتحت لوائها كان يقاتل المقاتلون.

وفي زمن نشوء الدولة الإسلامية كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفضل اللون الأبيض، فاتخذ منه أعلامه، وقد حافظ الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أمية على هذا اللون و لم يتم تغييره إلا على عهد العباسيين الذين اتخذوا اللون الأسود شعارا لهم، تعبيرا منهم عن حزنهم على شهدائهم من آل البيت الذين سحقتهم الآلة العسكرية الأموية، فسموا بالمسودة ، وقد خالف الطالبيون العلويون العباسيين في شعارهم فاتخذوا اللون الأبيض لونا رسميا لهم فسموا بالمبيضة، وهو اللون الذي استمر مع الفاطميين، أما اللون الأخضر فثبت اتخاذه من لدن الرسول صلى الله عليه وسلم إبان دخوله مكة فاتحا، كما اتخذه المأمون العباسي فجعله شعارا لرايته[3].

أما الدولة المرابطية وبحكم ولائها للخلافة العباسية فقد كان اللون الرسمي لديها اللون الأسود، ونستشف من رواية صاحب الحلل الموشية وهو يتحدث

1-ابن عذاري، البيان المغرب..، قسم الموحدين، تحقيق جماعة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص. 54.

2-ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 202.

3- نفسه.

عن تحرك الجيوش المرابطية بقيادة **يوسف بن تاشفين** أن الفرق المرابطية كانت تتخذ الرايات البيض بينما كانت الجيوش الأندلسية تسير خلف الرايات الحمر المزينة بعدة صور، أما في زناتة فقد كانت تتخذ الرايات المطيفة والأعلام المنيفة[1] في حين اتخذت الدولة الموحدية عدة ألوان لألويتها منها: الأبيض، والأصفر والأحمر، وكان **ابن تومرت** يفضل اللون الأبيض [2] لما له من دلالة نفسية،وتشبها بالرسول صلى الله عليه وسلم، وسرعان ما أصبح هذا اللون لونا رسميا للدولة الموحدية وشعارا لها.

أما عن عدد هذه الرايات، فإنه كان يتغير بتغير المناسبات وتغير ظروف خروج الجيش بل وحتى حسب نوع العدو الذي سيواجهه المسلمون، فمحاربة الجيوش النصرانية كان يقتضي جيشا ضخما يضم العديد من البنود والأعلام بشكل يثير الرعب والفزع في صفوف النصارى، بينما كان العدد يقل عند الخروج لقمع المتمردين أو ضبط الثغور.

وبخصوص الجيوش البحرية فإن معلوماتنا عن اتخاذها لرايات محددة تبقى قليلة جدا، إلا أنه وما دام الأسطول يضم عناصر من الجيش البري فما المانع من اتخاذ رايات ترمز إلى الدولة التي ينتمي إليها الأسطول، لهذا تشير إحدى الباحثات أن السفن النصرانية إبان الحروب الصليبية كانت تتخذ أعلاما تضمنت إشارات للصليب، وما دامت الحالة كذلك فإن السفن الإسلامية يحتمل أنها كانت تحمل رايات ترمز إلى الهلال[3] ولا شك أن الهلال والصليب من بين الإشارات التي تحمل دلالات حضارية عند كل من المسلمين والنصارى.

1-الحلل الموشية، المصدر السابق،ص. 122.

2-ابن القطان، نظم الجمان..، تحقيق محمود علي مكي، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص. 168-169.

3-سعاد ماهر، البحرية في عهد مصر الإسلامية، القاهرة، 1967، ص. 309-310.

- **المنجنيق.**

بالإضافة إلى الرايات والطبول، كان الأسطول الموحدي يستعمل عدة أسلحة منها تلك التي كان يلجأ إليها لقذف الحجارة، وهي المنجنيقات،التي كانت تستخدم لحصار المدن، ويستفاد مما أورده **ابن الحاج** [1] أن هذه الآلات الضخمة كان يتم نقلها بحرا على متن السفن عوض نقلها برا حيث كانت السفن أكثر ملاءمة لنقل هذه المعدات الثقيلة،خاصة إذا كانت المعركة في الأندلس أو في المدن الساحلية.

فقد نصب **عبد المؤمن** إبان حصاره للمهدية المجانيق في البر والبحر وشدد عليها الحصار إلى أن تم فتحها [2]، وكان مفعول هذه المجانيق قويا، فكانت تخلف خسائر فادحة في أبواب المدن والأسوار بل وحتى في الدور السكنية، **فالناصر الموحدي** عند حصاره والي المهدية الموالي لبني غانية عقب حركة التمرد الكبرى التي تزعمها بنو غانية انطلاقا من جزر البليار، فصنع منجنيقا كبيرا يمكن من رمي مائة ربع ، وقد أحدثت هذه المجانيق خسائر في باب المدينة المصنوع من الحديد والذي أشادت الروايات التاريخية بمناعته ، فقد طوى وسط الباب حجر وقع فيها، مما دفع والي المدينة بعد أن تأكد أن لا طاقة له على مواجهة جيوش الناصر، إلى إعلان طاعته ومبايعته للناصر الموحدي.[3]

أما عن طريقة صنع المنجنيق، فإنه كان يتخذ من الخشب الجيد.وغالبا ما كان خشب السنديان،فيصنع على شكل مثلث متساوي الساقين، توضع في

1-ابن الحاج، فيض العباب..، إعداد محمد بنشقرون، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص. 274.

2-ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس..، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972، ص. 210.

3- نفسه.

أعلاه الخنزيرة التي يوضع تحتها خشب ليمنع تعرض الرماة المكلفين بجره لأذى. فتوضع الحجارة في كفة المنجنيق ويتم جذبها ثم ترسل فيرتفع الجزء الذي في الكفة فيخرج منها الحجر فتصيب هدفها ، ومن توابع المنجنيق الزيارات وهي اللوالب والحبال التي يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمي به الحجر.

– القسي:

آلة حربية كانت تصنع من الخشب وتضم نوعين، قسي مخصصة لرمي قوارير النفط وأخرى كانت تعرف بقوس العقارة، حيث كان الذي يسهر على الاشتغال بها أن يقوم بجذب القوس ويقيسه بوضع قدميه على طرفيه ، وقد كانت هذه الآلة صالحة للاستعمال في الحروب البرية والبحرية على حد سواء، وإن كان مفعولها قويا في الحروب البحرية فكانت توضع في قلاع السفن وتجذب أوتارها باللوالب.

–الكلاليب:

خطاطيف كانت تصنع من الحديد وبواسطتها كان يتم الاقتراب من سفن العدو، فترمى على جوانب السفن فتجذبها إليها، فتسهل عملية الالتحام أو إلتصاق السفن مما يسهل عملية القتال والتشابك بين المقاتلين على أظهر السفن.

– الباسليقات:

وهي سلاسل توجد في رؤوسها رمانة مصنوعة من الحديد تستخدم في القتال على ظهر المركب ولا شك أن هذه الآلة كانت تتطلب عناصر خاصة من الجيش فعملية إمساك السلسلة ورميها عبر عمليات متعددة كان لا بد من توفر عناصر تتميز بالقوة وشدة البأس.

–اللتون: أعمدة مصنوعة من حديد تنتهي برؤوس مستطيلة الشكل مضرسة ولها مقابض من خشب.

-الدبابيس: تكاد تكون شبيهة باللتون إلا أنها مدورة ومضرسة.

-المستوفيات: كانت أيضا تصنع من الحديد، مربعة الشكل تتميز بطولها الذي قد يتجاوز ذراعين،وهذه الأسلحة الثلاثة: اللتون والمستوفيات والدبابيس،كانت تستخدم لتهشيم الخوذات المعدنية.

-الترس: آلة كانت توضع على الوجه لتحمي الضربات التي يمكن أن يتلقاها الجندي، وكانت تعرف بالجنة أو الحجة ،وكانت تتخذ من الخشب أو الحديد، وفي بعض الأحيان كانت تصنع من عيدان يشد بعضها إلى بعض بواسطة خيوط من القطن، أما إذا صنعت من الجلود فكان يقال لها الدرقة.

-الدروع اللمطية:

نالت هذه الدروع شهرة عظيمة وكانت من بين المواد الأساسية في تجارة المغرب نحو أوربا أو إلى باقي حواضر الغرب الإسلامي، وكانت تنتج أساسا في صحراء صنهاجة من جلود حيوان اللمط، الذي -وحسب البكري- فهو دابة دون البقر، تتميز ذكرانها بقرون حادة قد يتجاوز طول قرن أحدها أربعة أشبار، وأجود أنواع الجلود اللمطية ما صنعت من جلود العواتق التي طال قرنها وكبر سنها[1].

كانت هذه الدروع توضع على صدور المقاتلين، وبفعل شدة صلابتها فإنها كانت تحول دون نفاذ السهم أو الرمح إلى صدر المقاتل، وهذه الخاصية هي التي جعلت ملوك المغرب يفضلون استعمالها وإكساء الجند بها.

1- أبو عبيد الله البكري، المغرب في بلاد إفريقيا والمغرب، جزء من المسالك والممالك، تحقيق، دوسلات، د.ت، ص. 171.

أما باقي الأسلحة فيمكن أن نذكر السيوف والرماح والفؤوس والأقواس وصناديق النشاب والخناجر والعكاكز التي كانت تنتهي بسكين [1].

-العرادات:

ويستوقفنا هنا نوع خاص من الأسلحة وهي تلك المخصصة لقذف الشهب النارية أو ما يعرف بقذائف النفط، وهذه الآلة هي العرادات التي هي دون المجانيق حجما، وتستخدم كذلك لرمي السهام والحجارة ، إلا أن الغالب على وظيفتها هو رمي قدور النفط، إلا أننا نلاحظ اختلافا بين المؤرخين في ضبط اسم هذه الآلة، فصاحب القرطاس وابن خلدون يستعملان اسم الرعادات [2] أما صاحب الحلل الموشية[3] فيسميها العرادات، وقد اطمأن المكفول برحمة الله **محمد المنوني** إلى ما ذهب إليه صاحب الحلل الموشية فسماها بالعرادة وليس بالرعادة[4].

لكن إذا كان الأمر كذلك حول اسم هذه الآلة، فإن الخلاف كان حادا بين الباحثين حول تلك الشهب النارية التي كانت تقذفها العرادات أو ما سيعرف ب "النار الإغريقية"، فبالنسبة للنفط فقد أشار غير واحد من المؤرخين إلى استعماله في الغرب الإسلامي، فقد استعمل في الأندلس[5] وفي إفريقية [6] وفي

1-ابن عذاري، البيان المغرب..، ج.4، تحقيق، إحسان عباس، ط. 2، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص.117.

2-ابن أبي زرع، م.س، ص. 198، ابن خلدون، كتاب العبر..، ضبط المتن خليل شحاتة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، 1973،ج. 7، ص. 249.

3- الحلل..، م.س، ص68.

4- محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المرينية، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة رقم 20، ص113-114.

5-ابن حيان، المقتبس من أخبار أهل الأندلس، تحقيق، محمد علي مكي، دار الكتب العربية، بيروت، 1973، ص 309.

6-أحمد التيجاني، رحلة التيجاني، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1981، ص. 334.

صقلية[1]، وقد وصف **التجاني** هذه النار بأبيات ثلاثة عند معرض مدحه لأسطول علي بن يحيى عند استعداده لمواجهة **رجار الصقلي** [2]

يعيد مضي الجو اقتم حالكـــا دخان لظى من نارها يتوهج

إذا فضفضت من ألســـن لهبيـــة بمارج نار يستقـــل ويعـــرج

رأيت ضلالا أخرجت من جهنم تحرق أكباد العداة وتنضـــج

واشتهرت صقلية بثلاثة آبار كان يستخرج منها النفط من أول فصل الربيع إلى آخره ، فيتم تجميعه في أماكن خاصة حتى يعلو النفط فيأخذونه ويجعلونه في قوارير[3] ثم يستخرجون منه زيوت النفط التي منها تتخذ الشهب النارية.

واستطاع السبتيون على عهد الدولة الموحدية أن يكيفوا سفنهم على استعمال هذه الشهب النارية التي استمر استعمالها زمن الدولة المرينية [4]، ونلمس من خلال فتوى **لابن رشد** ارتكزت على ما أفتى به **ابن القاسم** حول الحصن الذي يتم رميه بالنار والمنجنيقات، فأفتى بجواز رمي الحصن بالمنجنيق فقط حتى ولو كان يحتفظ بداخله بأطفال صغار، أما قذف النار فحصره في المراكب فقط وذلك لمبادرة المراكب النصرانية باستعمال هذا السلاح، فكان على المسلمين أن يعدوا عدتهم من النار حتى يتمكنوا من رد خطرهم.

وقد احتفظت بيزنطة بسرية تحضير النار الإغريقية مدة طويلة من الزمن، وكان يرجع لها الفضل في انتصاراتها على السفن الاسلامية سواء الأموية أو العباسية التي كانت تطمح إلى فتح القسطنطينية، إلا أن هذا المشروع –فتح

1- القزويني،آثار البلاد وأخبار العباد،دار صادر،بيروت،د.ت،ص216.

2-التجاني،م؟س،ص334.

3-القزويني،م.س،ص216.

4-محمد المنوني،م.س،ص115.

قسطنطينية- كان يصطدم بقوة مفعول النار الإغريقية، وهو ما مكن الدولة البيزنطية من كسب جولات الحروب البحرية ضد الدولة الإسلامية [1].

وكانت بيزنطة تلجأ في تبريرها لاحتفاظها بسرية هذه النار إلى المؤسسة الدينية التي جعلت هذه النار حقا إلهيا أوحى به الإله إلى الإمبراطور **قسطنطين الأول**، فكانت بذلك بمثابة بركة منحها الإله للإمبراطور والإمبراطورية البيزنطية [2]، ويرى الباحث أن استخدام هذه النار عند البيزنطيين كان في عهد الإمبراطور **قسطنطين الرابع بوجوناتوس** (648-685م) وأن اختراعها كان بواسطة أحد المهندسين وكان يسمى بكالينكوس ، الذي التحق بالقسطنطينية ومكن بيزنطة من هذا السلاح الاستراتيجي الذي ظهر مفعوله لأول مرة عقب حصار المسلمين للقسطنطينية في عام (48 هـ-668م)، فتمكنت بيزنطة من فك الحصار بعد أن تمكنت من تدمير أغلب وحدات الأسطول الأموي.

أما عن تركيبة هذه النار فقد أشار أحد المهتمين إلى أنها كانت تركب من النافتا-زيت النفط- وميزة هذه الزيت أنها سريعة الالتهاب حالما تصطدم بالهواء، وكان يضاف إليها الكبريت والقار، وميزة هذه التركيبة أنها كانت لا تنطفئ إذا ما لامست الماء، بل تزداد توهجا واشتعالا، ولا يمكن الحد من لهيبها إلا باستعمال الرمل والخل ، كما كان يضاف لهذه التركيبة مقادير من الجير حتى تتمكن من المحافظة على توهجها وقوة لهيبها، ومن ثم فقد كانت هذه النار تضم تركيبة تتكون من النفط والكبريت والجير والقار فتعطينا ما عرف بالنار السائلة أو نار البحر [3].

1-أرشبالد لويس،القوى البحرية والتجارية في حوضالبحر المتوسط،ترجمة محمد عيسى،د.ت،ص96-97-104-111.

2-محمد عنان،مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام،ط4،القاهرة1962،ج1،ص552.

3-نفسه.

وبالنسبة للمسلمين، فقد تمكنوا من الوقوف على هذه النار في ق 5 هـ/11م، لكن هل كان ذلك بواسطة البحث والتحليل خاصة وأن علم الكمياء كان قد بلغ شأوا عظيما على عهد الدولة الإسلامية –الدولة العباسية بالخصوص؟ أم هل وقف العرب على هذه النار من خلال إفشاء سرها من قبل بعض البيزنطيين الذين لجؤوا إلى الدولة الإسلامية؟

وبالجملة، لا نكاد نساير ما ذهب إليه **عبد الله عنان** من أن المسلمين لم يتعرفوا هذه النار إلا مع ق 5 هـ/11 م، وذلك أن أقدم الروايات حول استعمال هذا السلاح في الأساطيل الإسلامية خاصة في الغرب الإسلامي يفيدنا بها **ابن حيان**[1] حين يشير إلى أن قنينات النفط التي كانت من بين العدة التي يتجهز بها أسطول الأندلس، لكن هل كان استعمال الأندلسيين لهذه النار عن طريق معاينتهم للسفن النورماندية التي استباحت سواحل الجزيرة خاصة الغربية منها؟ وهل كان ظفر الخلافة الأموية بعدة سفن نورماندية باعثا للأمويين للوقوف عن كثب على هذه النار والوسائل المستخدمة فيها؟

ورغم أننا لا نتوفر على إشارات مصدرية تلقي بعض الضوء على هذا السلاح ومتى بدأ استخدامه في الغرب الإسلامي، إلا أن أرشبالد لويس[2] يفيدنا أن الأغالبة كانوا قد استخدموا هذه النار في هجومهم على جزيرة صقلية بواسطة سفن من نوع الحراقات .

ومهما يكن، فإن استعمال المسلمين لهذه النار سواء في الغرب الإسلامي أم المشرق الإسلامي، يكونون بذلك قد كسروا ذلك السر الذي كانت تحتفظ به بيزنطة، وأن اكتساب المسلمين لهذا السلاح مكنهم من قلب موازين القوة

1-المقتبس،م.س،ص309.

2-القوى البحرية..،م.س،ص242-243.

داخل البحر المتوسط لصالحهم، وأدخلوا عليها كثيرا من التحسينات سواء من حيث التركيب أم من حيث الاستعمال[1].

ولا نغادر هذه القضية دون التطرق إلى مشكلة لا تزال تلقي بظلالها على مجال البحث التاريخي في المغرب الوسيط، والأمر يتعلق بالسلاح الناري، ومتى بدأ استخدامه في الغرب الإسلامي؟. وهل يصح أن نتحدث عن السلاح الناري في العصر الوسيط؟

إننا نتوفر على إشارة وحيدة حول استخدام البارود أوردها ابن خلدون في معرض حديثه عن افتتاح السلطان المريني أبو يوسف لمدينة سجلماسة حيث شدد عليها في رجب 672 هـ/ 1274م "**ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة..**" [2]

إلا أن هذا التاريخ الذي أورده ابن خلدون ناقشه **أبو العباس أحمد الناصري** الذي ساق عدة روايات منها ما أورده **أبو زيد الفاسي** في شرحه لمنظومته الموضوعة في العمل الجاري بفاس حيث يقول بأن البارود استعمل في سنة 768 هـ/ 1366م وأن اختراعه كان صدفة عندما كان أحد المهتمين بصناعة الكمياء منهمكا في إحدى تجاربه فوقعت له فرقعة، فأعاد الكرة مرة أخرى فأعجبه فاستخرج منه البارود . كما أورد الناصري رواية أخرى **لأبي عبد الله بناني** الذي أكد في حاشية له على مختصر الشيخ **خليل** أن اكتشاف البارود كان في وسط المائة الثامنة، فيرى الناصري أن الأمر فيه تصحيف "... **وهو غير صواب كما علمت من كلام ابن خلدون أنه كان موجودا قبل**

1-سعاد ماهر،م.س،ص235.

2-ابن خلدون،كتاب العبر..،ج7،ص249.

ذلك بنحو مائة سنة ويغلب على ظني أن لفظ الستمائة تصحف بالسبعمائة فسرى الغلط من ذلك والله أعلم" [1].

إلا أن الأكيد تاريخيا هو أن البارود –والسلاح الناري عموما- استعمل على نطاق واسع مع نهاية العصر الوسيط، وبداية العصر الحديث وأن استخدامه أحدث نقلة نوعية في التاريخ سواء في الحروب البرية أم البحرية.

2- الأسطول الموحدي واستراتيجية القتال البحري

بعد تعرضنا لأنواع الأسلحة التي كان يستخدمها الأسطول إبان العمليات العسكرية يبقى لنا أن نتساءل كيف كان يتم توظيفها أو بالأحرى كيف كانت تتم المعارك البحرية؟ وما هي الاستراتيجيات القتالية التي كان يتبناها القادة البحريون لإنهاء المعارك لصالحهم بأقل خسائر ممكنة؟

قبل محاول الإجابة عن هذه التساؤلات يجمل بنا أن نقف هنيهة عند أساليب واستراتيجيات القتال البري، يفرق ابن خلدون بين طريقتين للقتال إحداهما تعتمد على عمليتي الكر والفر، وهي طريقة قتالية تميزت بها القبائل العربية و"البربرية" من أهل المغرب[2]. وهذا الأسلوب القتالي ضارب في القدم ، يعتمد أساسا على توالي عمليتي الزحف وتحقيق ضربات خاطفة في صفوف العدو ثم التراجع إلى القواعد الخلفية ليتم التجهيز والاستعداد لتنفيذ زحف ثان ثم العودة وهكذا، إلا أن هذه الخطة القتالية لم تلق استحسانا من طرف ابن خلدون الذي فضل عنها الطريقة الثانية في القتال والتي تعتمد على القتال بواسطة الصف، وهذا الأسلوب كان معتمدا من قبل المقاتلين العجم[3] ،

1-أحمد الناصري،كتاب الإستصقا..،تحقيق جعفر ومحمد الناصريين،الدار البيضاء،1954،ج3،ص36-37.

2-المقدمة،م.س،ص211-212.

3-نفسه.

ويعتمد على ترتيب المقاتلة على شكل صفوف متراصة، فيكون قتالها أوثق وأثبت من طريقة الكر والفر.

وبالإضافة إلى هاتين الطريقتين كان الجيش غالبا ما يقسم إلى خمس فرق، تكون ما يعرف بالميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة والقلب، وبين هذه الطريقة وتلك كان القادة يكيفون خططهم العسكرية حسب طبيعة المنطقة والظروف العامة التي تفرضها المعركة، فإبان التحركات الأولى للطلائع المرابطية فإن قادتهم لجؤوا إلى أسلوب قتالي عرف بأسلوب التقري[1]. الذي يرتكز أساسا على تجنب الاصطدام المباشر بالعدو إلا بعد السيطرة على بعض النقط الاستراتيجية كما هو الشأن بالنسبة لمدينة سجلماسة وناحيتها التي وفرت للجيوش المرابطية موارد مالية وفلاحية مكنتهم من مواصلة الزحف نحو شمال المغرب الأقصى ثم الأندلس .

ولعل هذه الخطة ذاتها هي التي نهجها الموحدون خاصة عندما منيت جيوشهم بهزيمة قاسية أمام الجيوش المرابطية في معركة البحيرة، لهذا لجأ **عبد المؤمن** إلى خطة جديدة ترجمت خبرته العسكرية وأبانت عن مواهبه القتالية، حيث اهتم بالجبال فسيطر على معادنها ومواردها الفلاحية وتجنب الاصطدام المباشر بتاشفين بن علي في البسائط إلى أن تمت محاصرته –**تاشفين بن علي**– في مدينة وهران حيث أردي قتيلا بعد أن هوى به فرسه من على الجبل فاندق رأسه.

وقبل عملية خروج الجيش كانت تجري عملية التمييز، وهي عملية كانت تهدف إلى تمييز المقاتلة وتطال أيضا القبائل، وكانت طريقة تميزت بها الدولة الموحدية وارتكبت فيها" مجازر فادحة "، حيث كان منطق الدولة

1-ابن خلدون،العبر..،ج6،ص246.

المتحكم والمبرر لها، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الأسلوب لم يكن وقفا على الدولة الموحدية فقط، بل كان كذلك في عهد الدولة المرابطية حيث يحدثنا ابن عذاري أن تاشفين بن علي في عام 538هـ/ 1144م قام بتمييز جنوده فتعجب الناس من هذه العملية [1]، إلا أننا لم نقف على إشارات تمكننا من المقارنة بين عملية التميز عند كل من المرابطين والموحدين، ولا شك أن عملية التميز على عهد المرابطين لم تكن تختلف عن كونها إجراء عسكريا عاديا يقوم به القادة قبل الخروج إلى المعركة و لم نظفر بمعلومات تفيد تنفيذ عمليات التقتيل التي كانت تعقب عمليات التمييز كما هو الشأن بالنسبة للموحدين.

وكان القادة حريصين أشد الحرص على كتمان أسرار تحركاتهم والوجهة التي يرمون إليها، بهدف مباغتة العدو ومهاجمته على حين غرة، فلم يعلن عبد المؤمن عن الوجهة التي يقصدها بعد أن سيطر على المغرب الأقصى فجمع الجنود وأظهر الجواز إلى الأندلس،لكن سرعان ما عدل عن ذلك مظهرا العودة من سبتة إلى مراكش حتى نادى منادي الحملة "أيها الناس من تكلم من كلام معناه إلى أين هذا السفر جزاؤه السيف ثم تحرك إلى بجاية مستعجلا في الرحيل، فما شعر صاحب بجاية العزيز بالله بن يحيى حتى وصل عامله بالجزائر وقد خرج منها ودخلها الموحدون"[2] .

وكان القادة يستعينون بالجواسيس الذين يكلفون بمراقبة تحركات العدو ويقومون بدس الكتب التي تتضمن عبارات الصفح والعفو عن الرعية إذا ما أعلنوا تمردهم على أمرائهم وانخرطوا في سلك التوحيد، وقد حدث عندما عزم **المنصور** الموحدي على ملاقاة بني غانية حيث عمد الجواسيس إلى دس الكتب

1-ابن عذاري،ق.م،م.س،ص19.

2-الحلل الموشية..،ص148-149.

في المدينة فلما وقف عليها الناس "**وثبوا على ما كان عندهم من الأعداء –بنو غانية– وأرصدوا لفرارهم بالمضايق وقبضوا على أكثرهم بتلك المخانق**" [1].

فإذا كانت هذه باختصار أهم مميزات القتال البري، فما هي مميزات القتال البحري؟.

اعتبر القتال في البحر أصعب من القتال في البر، إذ غالبا ما تتم المعركة البرية في بسائط شاسعة تستوعب أعداد المقاتلين وتمكن من إنجاز عمليات المناورة، إلا أن الأمر يختلف كليا على لجة البحر، فالمجال ضيق والسفن لا يمكنها أن تتحرك بالشكل الذي تشتهيه إما لتوقف الرياح أو هبوبها في الاتجاه غير المرغوب فيه، ونظرا لضيق المجال فإن السهام والأحجار لا تخطئ أهدافها ، وقد مثل بعضهم الحرب البرية بلعبة الشطرنج أما لعبة النرد فوضعت لتمثيل الحرب البحرية، فصاحب النرد إذا وضع الميارك في المواضع الجيدة وأخذ أهبته واحترازه فإن ذلك لا ينفعه، إذا ما جاءت الفصوص بما لا يوافق الغرض فلم ينتفع باحترازه[2].

ومثلما كان يتم استعراض الجيوش البرية المتوجهة نحو المعركة، فإن العملية ذاتها كانت تطال الجيوش البحرية ووحدات الأسطول، ورغم أننا لا نتوفر على إشارات مصدرية بشأن هذه العملية على عهد الدولة الموحدية، إلا أنه ولحسن الحظ نتوفر على نص يتعلق بالدولة المرينية، يخبرفيه صاحب فيض العباب[3] أن السلطان **أبا عنان** أشرف بنفسه على استعراض وحدات الأسطول المتجهة لغزو البلاد النصرانية، فرتبت المراكب بحسب أهميتها ومكانة المدن البحرية، إذ كانت تأتي في المقدمة أجفان القائد الأعلى **ابن الأحمر** الذي كان

1-ابن عذاري،م.س،ص178.

2-أنور عبد العليم،م.س،ص108.

3-ابن الحاج،م.س،ص270-271-283.

يركب طريدة ويليه أسطول طنجة بقيادة **ابن الخطيب** الذي كان يركب غرابا، وبعدهما تأتي باقي السفن التي طليت بالطلاء الأسود الحالك، فكان يوما بهيجا لم يشهد مثله، وأرسلت الآلات الموسيقية ألحانها وقرعت الطبول وتعالت أصوات البوقات والأنفار ودوت طلقات الأنفاظ وخفقت الرايات المختلفة الألوان.

وتجدر الإشارة إلى أن عملية استعراض وحدات الأسطول كانت عملية جد مألوفة لدى الدول الإسلامية ،التي كانت تنظر إلى الأسطول كجزء مكمل لوحدات الجيش العامة، و إليه يرجع الفضل في حسم كثير من مواقع النزاع، فعلى عهد الدولة الفاطمية في مصر كان الخليفة العبيدي إذا أراد أن يجهز وحدات البحرية للغزو يشرف بنفسه على النفقة على الجيوش البحرية، حتى إذا انتهى من هذه العملية فإنه يخرج مع وزيره إلى ساحل النيل فيجلس في منظرة للموادعة ويتقدم إليه القواد بالسفن المختلفة التي تزينت بالأسلحة والمنجنيقات، فتقوم بمناورات بحرية تماما كما يفعل في وقت المعركة، وبعد هذه العملية يتقدم بين يدي الخليفة مقدمو الأسطول والرايس فيزودهم بنصائحه ودعائه بالسلامة والنصر[1].

وبعد أن تنتهي عملية الاستعراض تخرج وحدات البحرية إلى المعركة، وأثناء خروجها فإنها تقتفي في تحركاتها آثار الوحدات البرية سيما على مستوى التنظيم، ولما تقترب من سفن العدو تبدأ عمليات المناوشات بالنشاب والمنجنيقات والعرادات، فهذه الأسلحة تمكن من القتال عن بعد، وتأخذ السفن في الاقتراب من بعضها البعض وتبدأ عمليات تناطح السفن، وعملية التناطح هذه طبقت على عهد الدولة الموحدية وقد كشفت عنها الرسالة الموجهة إلى

1-القلقشندي،صبح الأعشى،م.س،ج3،ص597.

الطلبة، حيث اصطفت السفن بطريقة متوازية، كل قطعة في الأسطول الموحدي تقابل قطعة أخرى في أسطول نصارى طرطوشة وبرشلونة، وتناطحت السفن ثم تراموا بالسهام وتداعسوا بالرماح وتشابكوا بالسيوف بل وتصارعوا بالأيدي، وقد كانت هذه المعركة البحرية تجري على مرأى ومسمع من الناس "**والناس ينظرون من البر لا يقدرون لإخوانهم إلا على الابتهال في الدعاء والضراعة إلى رب الأرض والسماء**"[1].

وتناطح المراكب كان الهدف منه هو محاولة إحداث شروخ في مراكب العدو حتى تتسرب إليها المياه فينشغل طاقم السفينة بإفراغ الماء، عندها يتمكن الجنود في الطرف الآخر من تنظيم عمليات الصعود إلى مراكب العدو، وتمكن الكلاليب من شد السفن إلى بعضها، وتوضع ألواح خشبية يمر عليها الجنود، لتبدأ المعركة البحرية على ظهر السفينة والتي لا تختلف في شيء عن المعركة البرية، فتستعمل فيها السيوف والرماح والمهاميز والسلاسل...وهي نفس الأسلحة التي تستعمل في الحرب البرية.

وكثيرا ما كان المسلمون يميلون في حروبهم البحرية إلى تفضيل القتال عن قرب خاصة مع البيزنطيين الذين كانوا متفوقين عن غيرهم باستخدامهم النار الإغريقية التي كانت تدمر كل شيء وقعت عليه خاصة وأنها تزداد اشتعالا عند ملامستها للماء، إلا أن أسلوب القتال البحري عن بعد أخذ يعوض شيئا فشيئا طيلة الفترة الوسيطية أسلوب القتال عن قرب الذي يعتمد على اقتحام المراكب.

اعتبر العمل العسكري جزءا هاما من نشاط البحرية سواء في الغرب الإسلامي أو في الشرق الإسلامي، ولا نبالغ إذا قلنا إن الهدف العسكري

1-أحمد العزاوي، رسائل موحدية،القسم الأول،ط1،منشورات كلية الآداب القنيطرة،1995،س83-86.

للبحرية كان هو النشاط الرئيسي لتحركات الأساطيل الإسلامية، وذلك أخذا بعين الاعتبار ظروف نشأة البحرية زمن **معاوية بن أبي سفيان**، سواء إبان ولايته على الشام في أيام خلافة **عثمان بن عفان** (ض)، أم عندما تولى أمر بني أمية بعد أن استطاع حسم الصراع لصالح دولتهم، وأخذا بعين الاعتبار كذلك ظروف نشأة البحرية في إفريقيا الشمالية الخاضعة لسيطرة الفاتحين المسلمين والذين شيدوا أولى قواعد البحرية بإفريقية-تونس- زمن ولاية حسان بن النعمان.

3-نماذج لنشاط الأسطول الموحدي.

إن أهم نشاط قام به الأسطول الموحدي على عهد الخليفة عبد المؤمن والذي برهن عن استراتيجية كبيرة تكونت لدى القادة البحرية الموحدية وذلك من خلال السيطرة على القاعدتين الكبيرتين في الغرب الإسلامي مدينة بجاية بالمغرب الأوسط ومدينة المهدية بإفريقية،وقد كانت هذه المنطقة تعيش ظروفا صعبة من جراء الزحف الهلالي الذي خلف آثارا كبيرة ومما زاد الأمر تعقيدا الغزو النورماندي،فأصبحت البلاد مجزأة تتقاسم السلطة بها ثلاث قوى متناحرة:الزيريون بصفتهم الحكام الشرعيين وبنو هلال المتغلبين أصحاب السلطة الفعلية والنورماند المسيطرين على السواحل.

***السيطرة على مدينة بجاية:**

حظيت هذه القاعدة البحرية باهتمام الموحدين وذلك لعدة اعتبارات منها:أنها غير بعيدة عن وهران وضاحيتها التي أضحت تابعة للموحدين،ثم إنها لم تكن تخضع للنورمانديين الذين كان عبد المؤمن لا يزال لم يكشف عن نواياه اتجاههم،ونرجح أن الذي دفع عبد المؤمن إلى الاهتمام بمدينة بجاية أهميتها البحرية في إطار التجارة المتوسطية،ثم إن سلطة الحماديين بها لم تكن مؤهلة

بالشكل الذي يمكنها من وقف الزحف الموحدي،الأمر الذي تكشف عنه عملية دخول الموحدين للمدينة

فقد نظم عبد المؤمن عملية تجميع الجيش ووزع الرايات على القادة مظهرا الجواز إلى الأندلس لكن سرعان ما تغيرت وجهت الجيش مما يكشف عن الدقة والسرية التي كانت تتحرك بهماا الجيوش حيث أرسل عبد المؤمن إلى عامله على تلمسان أن يمنع التجار والمسافرين من السفر إلى إفريقية[1]،وفي هذه الظروف تحركت القطع البحرية وكان دورها متميزا عن الجيوش البرية إذ كانت سباقة في الوصول إلى سواحل المدينة وقد عمد قائد الأسطول أبو العباس الصقلي إلى دس كتبا(مناشير)تكشف لأهل المدينة الخطر الذي ينتظرهم إذا لم يفتحوا المدينة بطريقة سلمية،وقد نجحت هذه الخطة بعد البلبلة التي أثارتها الكتب وتمكنت عمائر الأسطول من دخول المدينة.[2]

***السيطرة على المهدية:**

تكاد تجمع المصادر أن سيطرة النورماند على المدينة كانت في سنة543هـ/1148ومنها أخذوا يوجهون حملاتهم نحو مدن إفريقية،أما والي المدينة الحسن بن علي فلم يجد بدا من الفرار إلى مصر ولما لم يستطع فإنه توجه إلى البلاط الموحدي مستصرخا.

ومنذ هذا تاريخ وعبد المؤمن يعد العدة ويهيئ الجيش ويرتب الأسطول ويوجع خطاباته لولاته في المغرب الأوسط يحثهم فيها على إعداد الأزواد وتمهيد الطريق،وما يهمنا من هذه الحركة مشاركة الأسطول الموحدي الذي كان دوره محوريا فتمكن من التضييق على مدينة تونس التي فضل أعيانها طلب الطلب الأمان والعفو من عبد المؤمن، فرحل عنهم في اتجاه المهدية،وعبثا حاول عبد

1-البيان..، ق.م، م.س، 46

2-نفسه.

المؤمن دخول المدينة من الناحية البرية و لم تنفع فيها العرادات والمنجنيقات التي نصبت في البر والبحر[1]،فاستمر حصارها ستة أشهر وتسعة أيام[2]، وقد تأبت المدينة بسبب الإمدادات التي كانت تصلها من صقلية،وفي هذه الظروف ركب عبد المؤمن شينيا رفقة والي المدينة الحسن بن علي فطاف بالمدينة من جهة البحر فأيقن إن المدينة لا تفتح إلا من جهة البحر،لدى وجب التضييق عليها بحارا.

وإبان هذا الحصار البحري تراءت في الأفق للأسطول الموحدي سفن صقلية قدرها صاحب الكامل بمائة وخمسين سوى الطرائد[3]،؟أما صاحب الحلل فقدرها في مائة جفن[4]، وعلى وجه السرعة عقد قادة الأسطول مجلسا عسكريا مع عبد المؤمن وأوضحوا له أن الأسطول الصقلي لا يمكنه إلا أن يصل متفرقا بسبب كثرته[5].

إن موقف هؤلاء القادة يكشف عن حس بحري كبير فكانوا يرغبون في ضرورة انفراد بقطع الأسطول الصقلي مستغلين اضطراب البحر،فتمكن الأميرال محمد بن ميمون بإحدى القطع البحرية،وما إن وصلت باقي القطع حتى باغتتها القطع الموحدية فسيطرت على ثمان قطع وولت القطع الأخرى الأدبار نحو صقلية.فيئس سكان المدينة من وصول أي نجدة فانتخبوا عشرة منهم تولوا الاتصال بعبد المؤمن وطلبوا الأمان مقابل إخلائهم المدينة وبعد عدة محاولات استجاب لهم عبد المؤمن.

1- القرطاس،م.س،ص198.

2-الحلل الموشية،153-154.

3-االبن الأثير،الكامل في التاريخ،ج9،ص63-61.

4-الحلل الموشية،م.س،ص154.

5- الكامل،م.س،ص| 63-64.

إن هذين النموذجين من المعارك الحربية للأسطول الموحدي يكشف عن حس بحري كبير لدى الدولة المغربية في العصر الوسيط التي اهتمت بالقطع البحرية مثلما اهتمت بالجيوش البرية حتى تؤمن حاجاتها من السفن لربط الاتصال بدول العالم المتوسطي ورد خطر القراصنة والأعداء.

المصادر والمراجع:

1- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس..،دار المنصور للطباعة والنشر،الرباط.1972.

2- ابن الأثير أبو الحسن،الكامل في التاريخ،تحقيق جماعة،ط4،دار الكتب العربية،بيروت،1983.

3- ابن الحاج النميري، فيض العباب في إفاضة أقداح الآداب في الحركة السعيدية إلى قسنطينة والزاب،إعداد محمد شقرون،ط1،دار الغرب الإسلامي.

4- ابن حيان التوحيدي،المقتبس من أخبار أهل الأندلس،تحقيق محمد علي مكي،دار الكتب العربية،بيروت1973.

5- ابن خلدون عبد الرحمان ، المقدمة،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت،1993.

6- عبد الرحمان بن خلدون،كتاب العبر..،ج 7،ضبط المتن خليل شحاتة،مراجعة سهيل زكار،بيروت 1973.

7- ابن السماك العاملي"،الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية،تحقيق.سهيل زكار وعبد القادر زمامة،ط1،دار الرشاد الحديثة،الدار البيضاء.1979.

8- ا بن صاحب الصلاة – المن وبالإمامة ،التحقيق عبد الهادي التازي،ط1،دار الغرب الإسلامي.1987.

9- ابن عبد ربه الحفيد"،الاستبصار في عجائب الأمصار،تحقيق سعد زغلول عبد الحميد،الدار البيضاء.1985

10- ابن عذاري،البيان المغرب..، ج4،تحقيق.إحسان عباس،ط2،دار الثقافة،بيروت.1980.

11- ابن عذاري، البيان،قسم الموحدين،تحقيق جماعة،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1985.

12- ابن القطان،نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان،تحقيق.محمود علي مكي،ط2،دار الغرب الإسلامي 1990.

13- ابن عذاري،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين،تحقيق جماعة،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت.1985.

14- أبو عبيدعبد الله البكري،المغرب في بلاد إفريقيا والمغرب،جزء من المسالك والممالك،تحقيق دوسلان،د.ت.

15- التيجاني أحمد ،رحلة التجاني،قدم لها حسن حسني عبد الوهاب،الدار العربية للكتاب،ليبيا-تونس1981.

16- الحميري عبد المنعم ،الروض المعطار في أخبار الأقطار،تحقيق.إحسان عباس،ط1وط2،مكتبة لبنات.بيروت،1975-1984.

17- المقري أحمد ، نفح الطيب.. ، ج 4 ،تحقيق إحسان عباس،دار صادر،بيروت1968،.

18- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد،دار صادر.بيروت،د.ت.

19- القلقشندي ، صبح الأعشى..، ج 2،د،ت.القاهرة.

20- العزاوي أحمد ، رسائل موحدية، مجموعة جديدة،القسم الأول،ط1،منشورات كلية الآداب القنيطرة.

21- المراكشي عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب،تحقيق.سعيد العريان والعربي العلمي،ط7.الدار البيضاء،1978.

22- ارشبالد لويس،القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط(500-1100م)،ترجمة أحمد محمد عيسى،دار النهضة،مصر.د.ت.

23- جواتاين،دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية،ترجمة عطية القوي،ط.1، 1980.

24- سعاد ماهر، البحرية في عهد مصر الإسلامية وآثرها الباقية،القاهرة.1967،صص، 309-310.

25- شوقي عثمان،تجارة المحيط الهند في العصر السيادة الإسلامية،عالم المعرفة،يوليو1993.

26- عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن 6هـ،ط1.دار الشروق1983.

27- فهمي محمود، التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن 7حتى لقرن 12م،ترجمة قاسم عبد القاسم،ط1 بيروت1981

28- عنان محمد، موافق، حاسمة في تاريخ الإسلام ط4، مؤسسة الخانجي، القاهرة، 1962

29- محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المرينية،منشورات كلية الآداب الرباط،جامعة محمد الخامس،سلسلة بحوث ودراسات رقم20.

30- ch. Picard,la mer et les musulman d'occident au au moyen age(viii-xiii),paris.1997